سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

مكية وهي مائة واثنتا عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ ﴾.

﴿ ٱقْتَرَبَ ﴾ أي دنا ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أي المشركين، لأن ما بعده من صفاتهم ﴿ حِسَابُهُمْ ﴾ أي وقت محاسبة الله إياهم على أعمالهم، والمراد باقتراب حسابهم اقتراب الساعة ﴿ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ ﴾ تامة منه، ساهون عنه بالمرة، لأنهم منكرون له، مع اقتضاء عقولهم أن الأعمال لا بدَّ لها من الجزاء ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ عن الآيات والنُّذر، والتأهب لذلك اليوم.

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ ﴾.

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ ﴾ من طائفة نازلة من القرآن، تذكّرهم ذلك ﴿ مِّن رَّبِّهِم ﴾ صفة لذكر، وفيه دلالة على كمال شناعة ما فعلوا ﴿ مُّحْدَثٍ ﴾ تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة ﴿ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي إلا استمعوا القرآن حال كونهم مستهزئين به.

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ ﴾.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ حال أخرى، والمعنى: ما يأتيهم ذكر من ربهم في حال من الأحوال، إلا حال استماعهم إياه، لاعبين مستهزئين به، لاهين عنه، لتناهي غفلتهم، وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور، والتفكر في العواقب ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ النجوى: الكلام سراً، ومعنى إسرارها مع أنها لا تكون إلاَّ سراً، أنهم بالغوا في إخفائها، بحيث لم يشعر أحد بأنهم متناجون ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدل من ضمير «أسرُّوا» منبىء عن كونهم موصوفين بالظلم فيما أسروا به ﴿هَلْ هَذَا﴾ أي قالوا في التناجي: هل هذا يعنون رسول الله ﷺ ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾؟ أي من جنسكم، وما أتى به سحر، أتعلمون ذلك؟ ﴿أَفَتَأْتُونَ﴾ أتحضرون ﴿السِّحْرَ﴾ وتقبلونه ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟ أي وأنتم تعاينون أنه سحر؟ قالوه بناءً على أن الرسول لا يكون إلا مَلَكا، وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق سحر، فهذا جهل لأن كل ما أتى به الرسول ﷺ من القرآن وغيره، ظاهر الحال لا تمويه فيه، وأنهم قد عرفوا حاله، وعلموا صدقه، إلاَّ أنهم يموّهون على ضعفائهم، بمثل هذا القول الكاذب.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ حكاية من جهته تعالى، لما قاله ﷺ بعدما أوحى الله إليه بأحوالهم وأقوالهم، بياناً لانكشاف سرهم، أي قال محمد ﷺ: إن ربي لا يخفى عليه شيء، يعلم قول كل قائل، سراً كان أو جهراً، وعلمه تعالى بالسرّ والجهر، على وتيرة واحدة، لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي سراً كان أو جهراً ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي المبالغ في العلم بالمسموعات والمعلومات، التي من جملتها ما أسروه من النجوى، فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ ﴾ إضراب من جهته تعالى، وانتقال من حكاية قولهم السابق، إلى حكاية قول آخر، أي لم يقتصروا على أن يقولوا: هل هذا إلا بشر؟ وأنه سحر؟ ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي تخاليط الأحلام، ثم أضربوا عنه فقالوا ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي اخترعه واختلقه من تلقاء نفسه، من غير أن يكون له أصل، ثم قالوا ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وما أتى به شعر، يخيل إلى السامع معاني لا حقيقة لها، وهكذا شأن المبطل المحجوج، متحير لا يزال يتردَّد من باطل إلى أبطل ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ جواب شرط محذوف، يفصح عنه السياق، كأنه قيل: إن لم يكن كما قلنا، بل كان رسولاً من الله تعالى، فليأتنا بآية ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي مثل الآية التي أرسل بها الأولون كاليد، والعصا ونحوهما، حتى نؤمن به، فرد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم ﴾ قبل مشركي مكة ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ من أهل قرية ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ﴾ بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم، بعد مجيء ما اقترحوه من الآيات ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي أفهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سألوه، مع كونهم أعتى منهم وأطغى؟.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ جواب لقولهم هل هذا إلا بشر، متضمن لرد ما دسوا تحت قولهم: ﴿كما أرسل الأولون﴾ من التعريض بعدم كونه ﷺ مثل أولئك الرسل ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ﴾ بواسطة الملك ما نوحي من الشرائع والأحكام، كما نوحي إليك من غير فرق بينهما في حقيقة الوحي حسبما يحكيه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ

وَالنَّبِيِّينَ﴾ الآية ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم لا تعلمون، فاسألوا الواقفين على أحوال الرسل السالفة، لتزول شبهتكم، وأمَّا تعلق بعض الفقهاء بهذه الآية، في أن العامي عليه أن يرجع إلى فتوى العلماء، فبعيدٌ، لأن هذه الآية، خطابُ مشافهةٍ، وهي واردةٌ في هذه الواقعة المخصوصة، ومتعلقة باليهود والنصارى[1].

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا﴾ بيانٌ لكون الرسل عليهم السلام، أسوة لسائر أفراد الجنس، في أحكام الطبيعة البشرية، إثر بيان كونهم أسوة في نفس البشرية، أي وما جعلنا الأنبياء كالملائكة، أجساداً لا يأكلون ولا يشربون، بل هم كسائر البشر يمتازون عليهم بالوحي ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ أي وما جعلناهم جسداً مستغنياً عن الأكل والشرب، بل محتاجاً إلى ذلك ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ المراد بالخلود: المكث المديد كما هو شأن الملائكة، أو الأبدية؛ وهم معتقدون أنهم لا يموتون فالجملة مقررة لما قبلها من كون الرسول بشراً لا مَلَكاً، مع ما في ذلك من الرد على قولهم: ﴿مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾؟.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ أي أوحينا، إليهم ما أوحينا، ثم صدقناهم في الوعد الذي وعدناهم، بإهلاك أعدائهم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ من المؤمنين

(١) أقول: هذه الآية وإن كانت في أهل الكتاب من علماء اليهود والنصارى، إلا أنه يستأنس بها في أن الرجل العامي ينبغي أن يرجع إلى أهل الفقه والعلم فيما أشكل عليه من أمر الدين.

وغيرهم، ممن تستدعي الحكمة إبقاءه، كمن سيؤمن هو، أو من سيؤمن من ذريته، وهو السرُّ في حماية العرب ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي المجاوزين الحدَّ في الكفر والعصيان، كقوم نوح، وعاد، وثمود.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ كلام مستأنف مسوق لتحقيق حقية القرآن الكريم أي والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر قريش ﴿كِتَٰبًا﴾ عظيم الشأن، نيِّر البرهان ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صفة لكتاباً، أي فيه شرفكم وصيتكم، كقوله تعالى: ﴿وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلقَوْمِكَ﴾ وقيل: فيه موعِظتكم، وهو الأنسب بسياق النظم وسياقه، فإن قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إنكار توبيخي، فيه بعث لهم على التدبر، والتذكر في أمر الكتاب المبين.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ نوع تفصيل لإجمال قوله تعالى: ﴿وأهلكنا المسرفين﴾ وبيان لكيفية إهلاكهم، أي وكثيراً من أهل القرى أهلكناهم إهلاكاً مريعاً، وفي لفظ القصم الذي هو عبارة عن الكسر، بإبانة أجزاء المكسور، من الدلالة على شدة الغضب ما لا يخفى، بخلاف الفصم وهو كسر بلا إبانة ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي كثيراً قصمنا من أهل قرية، كانوا ظالمين بآيات الله، كافرين بها كدأبكم ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أي بعد إهلاكها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي وخلقنا أمة أخرى بعدهم، ففيه تنبيه على استئصال الأولين بالكلية.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ ﴾ أي أدركوا عذابنا الشديد، إدراكاً تاماً ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أي يهربون مسرعين، راكضين دوابهم من فرط الإسراع، والركضُ: ضرب الدابة بالرجل لتسرع.

﴿ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ لَا تَرْكُضُواْ ﴾ أي قيل لهم بلسان الملائكة استهزاءً: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ﴿ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ من التنعُّم والتلذذ، والمترفُ: الذي أبطرته النعمة ﴿ وَمَسَٰكِنِكُمْ ﴾ التي كنتم تفتخرون بها ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ أي لعلكم تسألون عمَّا جرى عليكم، إذا رُئيتْ مساكنُكم خالية، فتسألون أين أصحابها؟ وهذا كله من باب السخرية والتهكم بهم، جزاء استهزائهم بآيات الله.

﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ قَالُواْ ﴾ لمَّا يئسوا من الخلاص بالهرب، وأيقنوا بنزول العذاب قالوا: ﴿ يَٰوَيْلَنَآ ﴾ أي يا هلاكنا ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي مستوجبين للعذاب، وهذا اعترافٌ منهم بالظلم، وباستتباعه للعذاب، ومذمَّةٌ عليه حين لم ينفعهم الندم.

﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ أي فما زالوا يردِّدون ذلك، وسميت دعوى لأنهم يدعون على أنفسهم بالويل ﴿ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا ﴾ أي مثل الحصيد، وهو المحصودُ من الزرع ولذلك لم يجمع ﴿ خَٰمِدِينَ ﴾ أي ميتين من خمدت النار، إذا طُفئت، وخَمَد الرجل: أي مات.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ ﴾ إشارة إجمالية إلى أن تكوين العالم، وإبداع بني آدم، مؤسس على الحكم البالغة، المستتبعة للغاية الجليلة، أي وما خلقنا الوجود وما فيه، من سماوات وأرضين ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقات التي لا تُحصى أجناسهم، على هذا النمط البديع، خالية عن الحِكم والمصالح ﴿ لَٰعِبِينَ ﴾ أي عبثاً وباطلاً، وإنما عبَّر عن ذلك باللعب، لكمال نزاهته تعالى عن الخلق، الخالي عن الحكمة، بل إنما خلقناها مشحونة بضروب البدائع، تبصرة للنظار، وتذكرة لذوي الاعتبار، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ، وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾[1].

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ يتلهى به ويُلعب. ﴿ لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ ﴾ أي من جهة قدرتنا، مما يليق بشأننا من الحور العين أو الملائكة، لا من الأجسام المرفوعة، والأجرام الموضوعة، كديدن الجبابرة، في رفع العروش، وتحسينها، وتسوية الفروش وتزيينها، لكن تستحيل إرادتنا له، لمنافاته الحكمة، فيستحيل اتخاذنا له قطعاً ﴿ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ جوابُه محذوفٌ ثقةً بدلالة ما قبله عليه، أي إن كنا فاعلين لأتخذناه.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ ﴾ إضرابٌ عن اتخاذ اللهو، كأنه قيل: لا نريده بل شأننا أن نغلب الحق الساطع، على الباطل المتزعزع ﴿ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ أي فيمحقه بالكليَّة، كما فعلنا بأهل القرى الظالمة، وقد استعير لإيراد

(١) سورة ص، آية: ٢٧.

الحق على الباطل، القذفُ الذي هو الرمي الشديدُ، بالجرم الصلب، ولمحقه للباطل بالدفع الذي هو كسر الدماغ، دَمَغَه إذا كسر عظم دماغه، وهو المؤدّي إلى زهوق الروح[1] ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي ذاهب بالكلية ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ وعيد لكفرة قريش، أي واستقر لكم الويل والهلاك، من أجل وصفكم له سبحانه، بما لا يليق بشأنه الجليل.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي له تعالى خاصة جميع المخلوقات، خلقاً وملكاً، وتدبيراً وتصرفاً، وإحياءً وإماتة، من غير أن يكون لأحدٍ في ذلك دخل ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ منزلة ومكانة وهم الملائكة بإجماع الأمة، عبَّر عنهم بذلك تنزيلاً لهم لكرامتهم منزلة المقربين عند الملوك، بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي لا يتعظمون عنها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يعيون فيها، وصيغة الاستقبال للتنبيه على أن عباداتهم بثقلها ودوامها، حقيقة بأن تستحسر منها، ومع ذلك لا يستحسرون.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي ينزهونه في جميع الأوقات، فهم في عبادة دائمة في الليل والنهار ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي لا يتخلَّلُ تسبيحَهم فتورٌ أصلاً، بفراغ أو بشغل آخر، وتسبيحهم جارٍ مجرى التنفس منا.

---

(١) شبَّه الحقَّ بشيء صلب، والباطل بشيء هشٍّ رخوٍ، واستعار لفظ القذف لغلبة الحق على الباطل، فكأنه رمى بشيء صلب على رأس دماغ الباطل، فشقَّه وحطَّمه، ولم يُبق له أثراً؛ ففي الآية استعارة تمثيلية من روائع أساليب البيان.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً ﴾ توبيخ آخر للمشركين، وتسفيه لأحلامهم في عبادة غير الله، من حجارة صماء بكماء، لا تستطيع خلْقَ شيء، والمعنى: هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة؟ ﴿ مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي من مواد الأرض، كالذهب، والفضة، والحجر، والخشب، وتعبد في الأرض؟ ﴿ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ أي هم يبعثون الموتى مع حقارتهم وجماديتهم؟ كلاّ فإن ما اتخذوها آلهة، بمعزل من ذلك، لا تتصف بالقدرة على شيء، فهي ليست بآلهة على الحقيقة، لأن من صفات الإله الحق القدرةُ على الإحياء والإماتة، والمراد به تجهيلهم والتهكم بهم.

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ إبطال لتعدد الإله، بإقامة البرهان على انتفائه، بل على استحالته، أي لو كان في السماوات والأرض، آلهة غير الله، كما هو اعتقادهم الباطل ﴿ لَفَسَدَتَا ۚ ﴾ أي لبطلتا بما فيهما جميعاً لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع، وحيث انتفى التالي عُلم انتفاءُ المقدَّم قطعاً، بيان الملازمة أن الإلهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد، بالتصرف فيهما على الإطلاق، تغييراً وتبديلاً، وإيجاداً وإعداماً، فبقاؤهما على ما هما عليه، إمَّا بتأثير كل منهما وهو محال، وإمَّا بتأثير واحد منهما، فالباقي بمعزل من الإلهية قطعاً[1] ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أي نزِّهوه سبحانه

(١) توضيح ذلك أنَّا لو فرضنا وجود إلهين في الكون، فأراد أحدهما شيئاً وأراد الآخر نقيضه، فإمَّا أن تنفذ إرادة كل منهما، وذلك محال لاستحالة اجتماع النقيضين، وإما أن تنفذ إرادة واحد منهما دون الآخر، فيكون الأول الذي تنفذ إرادته، هو الإله الحقيقي القادر، والثاني هو العاجز الذي لا يقدر على شيء، فلا يصلح أن يكون إلهاً، ولو كان =

عما لا يليق به من الأمور ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ صفة للاسم الجليل، مؤكدة لتنزهه عز وجل أي خالق العرش العظيم ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي فسبحوه عما يصف به أهل الجهل والإلحاد، من وجود آلهة معه، أو نسبة الزوجة له والولد.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ بيان أنه تعالى لعظمته، ليس لأحد من مخلوقاته، أن يناقشه ويسأله عما يفعل، ولو اعترض على السلطان بعض عبيده مع وجود التجانس، وجواز الخطأ عليه لاستُقبح ذلك منه، وعُدَّ سفهاً، فمن هو مالك الملك الحقيقي، وفعلُه صواب كلُّه، أولى بأن لا يُعترض عليه، فلا يملك أحد أن يقول ياربِّ لمَ فعلتَ ذلك؟ ﴿وَهُمْ﴾ العباد ﴿يُسْـَٔلُونَ﴾ عما يفعلون نقيراً أو قطميراً، لأنهم عبيد له تعالى.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إضراب وانتقال من إظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة، وتبكيتهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة، وتحقيق أن جميع الكتب السماوية، ناطقة بحقية التوحيد، وبطلان الاشتراك ﴿قُلْ﴾ لهم بطريق التبكيت ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ على ما تدعونه من جهة العقل والنقل، فإنه لا صحة لقولٍ لا دليل عليه، لا سيما في مثل هذا الشأن الخطير، وفي ذكر البرهان ضرب من التهكم بهم ﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ أي هذا الوحيُ، المتضمن للبرهان القاطع العقلي، ذكر أمتي، أي

= في الوجود غير الله سبحانه، لفسد نظام الكون، لما يقع بين الآلهة من التنازع والتصادم، كما لا يصح أن يكون في بلدٍ واحد مَلِكان، ولا في إدارة واحدة رئيسان، إنما يمكن أن يكون رئيس ونائبه، ورئيس جمهورية ونائبه.

عظتهم، وذكر الأمم السالفة قد أقمته، فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم، وانظروا هل في واحد من الكتب السماوية غير الأمر بالتوحيد، والنهي عن الإشراك؟ ففيه تبكيت لهم، متضمنٌ لإثبات نقيض مدّعاهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ انتقال من الأمر بتبكيتهم، إلى بيان أنه لا ينجع فيهم المحاجة، بإظهار حقية الحق، فإن أكثرهم لا يفهمون الحق ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ أي مستمرون عن الإعراض عن التوحيد، واتباع الرسول ﷺ، لا يرعوون عما هم عليه من الغيِّ والضلال.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ استئناف مقرر من كون التوحيد، ممَّا نطقت به الكتب الإلٰهية، وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام، أي وما أرسلنا قبلك يا محمد رسولاً من الرسل، إلاَّ أوحينا إليه، أنه لا إله ولا معبود بحق، إلاَّ الله رب العالمين، فخصُّوه بالعبادة، ولا تشركوا معه أحداً.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ حكاية لجناية فريق من المشركين وهم حي من خزاعة، يقولون: الملائكة بناتُ الله، وأضافوا إلى ذلك هذه الفرية، أنه تعالى صاهر الجِنَّ، على ما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[1] ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي تنزه بالذات تنزهه اللائق به ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ إضراب وإبطال لما قالوه، كأنه قيل: ليست الملائكة كما قالوا،

(١) سورة الصافات، آية: ١٥٨.

بل هم عبادٌ له تعالى ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ مقرَّبون عنده، وليسوا بأولاد، إذِ العبوديةُ تنافي الولادةَ.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي لا يسبقُ قولهُم قولَه تعالى، شأنهم شأن العبيد المؤدبين، الذين لا يفعلون شيئاً بدون إذن ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ بيانٌ لتبعيَّتهم له تعالى في الأعمال، كأنه قيل: هم بأمره يقولون، وبأمره يعملون، لا بغير أمره.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي علمه تعالى محيط بهم، لا تخفى عليه من أمورهم خافية، ولعلمهم بإحاطته تعالى، بما قدَّموا وأخروا، من الأقوال والأعمال، لايزالون يراقبون أحوالهم، فلا يُقْدِمون على قول، أو عمل، بغير أمره تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾ مهابةً منه تعالى ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أي لمن رضي الله تعالى عنه، من أهل التوحيد ﴿وَهُم﴾ مع ذلك ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ عزَّ وجلَّ ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ مرتعدون خائفون حذرون والإشفاقُ: الخوفُ مع الاعتناء، أشفقت من كذا: حذرتُ وخفت منه، وأشفقتُ على الصغير: حنوتُ وعطفت عليه.

﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي من الملائكة ﴿إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ متجاوزاً إياه ﴿فَذَٰلِكَ﴾ الذي فُرض قوله، وهو فرضٌ محال ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ كسائر

المجرمين، ولا يغني عنهم ما ذُكر من صفاتهم السنيَّة، وأفعالهم المرضية، وفيه الدلالة على عزة جبروته تعالى، واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم في حقهم ما توهمه أولئك الكفرة ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء، نجزي من ظلم بالإشراك بالله، وتعدَّى الحدود.

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ٣٠﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ استفهام توبيخ لهم، بتقصيرهم في التدبر في الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالألوهية، والهمزة للإنكار، والرؤيةُ قلبية، أي ألم يتفكروا ويعلموا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا﴾ الرتق الضم والالتحام، أي كانتا ذواتا رتق، وكانتا شيئاً واحداً، والرَّتْقُ: ضدُّ الفَتْق قال ابن عباس: كانت السماء رتقاً لا تمطر، والأرض رتقاً لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات[1] ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ أي فصلنا بينهما بالتنويع والتمييز، وتلاصق الأرض بالسماء، وتباينهما جائزان في العقل، فالفتق عارضٌ مفتقر إلى مؤثر قديم، ولا شك أنه هو الله العلي الكبير، وفي هذه الآية الكريمة دعوة إلى البحث العلمي في مجال الكون الفسيح، ليستدل الإنسان على قدرة الله الباهرة في مخلوقاته. ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ أي وجعلنا الماء أصل كل الأحياء، وسبباً للحياة:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٥/٣٤٨ أقول: هذا القول لابن عباس جميل، ولا ينافي ما يقوله علماء الطبيعة أن الأرض والمجموعة الشمسية، كانت قطعة واحدة، فانفصلت الأرض عن المجموعة الشمسية، وتبردت قشرتها فظهرت فيها البحار والأنهار، ويستدلون على صحة ذلك، بما في باطن الأرض من مواد ملتهبة، تقذف بين حين وآخر بالحمم والغازات والبراكين الثائرة، بل في هذا القول سبق علمي للقرآن الكريم كالذي أخبر قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، عن التصاق الأرض بالسماوات وبالمجموعة الشمسية.

للإنسان، والنبات والحيوان، لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ من مَاءٍ﴾[1] أي من نطفة ويدخل في ذكر الماء النباتات والأشجار، لأن الماء من أعظم موادها ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنكار بعدم إيمانهم لله وحده، مع ظهور ما يوجبه من الآيات الآفاقية والأنفسية، الدالة على تفرده عز وجل بالألوهية.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي كراهة أن تميل بهم وتضطرب بالبشر ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض أو في الجبال ﴿فِجَاجًا﴾ أي مسالك واسعة، جمع فج وهو الطريق الواسع ﴿سُبُلًا﴾ وإنما قدم «فِجاجاً» مع أنه وصفٌ، ليفيد أنه تعالى خلقها، ووسّعها للسابلة، مع ما فيه من التأكيد ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى مصالحهم ومهماتهم.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ﴾ أي محفوظاً من الوقوع بقدرته، أو من استراق السمع بالشهب كما قال الله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾[2] ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ الدالة على وحدانيته تعالى، وعلمه، وحكمته، وقدرته، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتدبرون فيها، فيبقون على ما هم عليه من الكفر والضلال.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) سورة النور، آية: ٤٥.

(٢) سورة الحِجْر، آية: ١٧.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ بيان لبعض الآيات الكونية، أي خلق الليل لتسكنوا فيه، والنهار لتتصرفوا فيه، والشمس لتكون سراج النهار، والقمرَ ليكون سراج الليل ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل من الشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والليل والنهار ﴿ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي يَجْرون ويسيرون بسرعة، كالسابح في الماء، والفَلَكُ: مدارُ النجوم، وهو في كلام العرب كلُّ شيء مستدير، وجمعه أفلاك، واختلف العلماء فيه، فقال بعضهم: الفلك ليس بجسم، وإنما هو مدار هذه النجوم، وهو قول الضحاك، وقال الأكثرون: هي أجسام تدور النجوم عليها، وهذا أقرب إلى ظاهر القرآن، والحقُّ أنه لا سبيل إلى معرفة صفات السماوات إلاَّ بالخبر القاطع.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ أي الدوام في الدنيا، لكونه مخالفاً للحكمة التشريعية ﴿ أَفَإِيْن مِّتَّ ﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴾ نزلت حين قالوا: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ﴾ كأنه قيل: أفإن متَّ أفهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك؟.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي ذائقة مرارة الموت ﴿ وَنَبْلُوكُمْ ﴾ الخطاب للناس كافة، أي نُعاملكم معاملة من يبلوكم ﴿ بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ ﴾ بالبلايا والنعم ﴿ فِتْنَةً ﴾ أي ابتلاءً مصدر مؤكِّد لنبلوكم من غير لفظه ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ لا إلى غيرنا، فنجازيكم حسبما يظهر منكم من الأعمال، فهو وعدٌ ووعيدٌ.

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي وإذا رآك الكفرة المجرمون ما يتخذونك يا محمد إلا مهزوءاً به، كأنه قيل ما يفعلون بك إلا الهزء ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ على إرادة القول، أي يقولون: أهذا الذي يذكر آلهتكم بسوء؟ وإنما أطلقه لدلالة الحال، فإن ذكر العدو لا يكون إلا بسوء ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ والمعنى: إنهم يعيبون الرسول أن يذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء، والحال أنهم بذكر الرحمن المنعم عليهم كافرون، فهم أحقَّاءُ بالعيبِ والإنكار، وأن يُهْزأ بهم، وتكرار الضمير (هم) للتأكيد.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ﴾ جُعل لفرط استعجاله، وقلة صبره، كأنه مخلوق من العجل، على سبيل المبالغة، تنزيلاً لما طُبع عليه من الأخلاق الرديئة، وقلة الصبر بالمخلوق من العجلة، ومن عجلته استعجاله بالوعيد، كقول: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾[1] الآية ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ تلوين للخطاب بطريق التهديد والوعيد، أي سأريكم نقماتي في الدنيا وعذابي في الآخرة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي فلا تتعجلوا الشيء قبل أوانه، فإن كل ما هو آت قريب.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي متى وقت مجيء الساعة، التي كانوا يوعدون؟ وإنما كانوا يقولونه بطريق الاستهزاء، لا طلباً لتعيين وقته بطريق الإلزام ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في وعدكم، والخطاب للرسول ﷺ والمؤمنين، الذين كانوا يتلون الآيات الكريمة، المنبئة عن مجيء الساعة،

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٢.

وجوابُ الشرط محذوف بدلالة ما قبله، كأنه قيل: فلتأتنا بسرعة إن كنتم صادقين.

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ استئناف مسوقٌ لبيان شدة هول ما يستعجلونه، وأنهم إنما يستعجلونه لجهلهم بشأنه، وهو الذي هوَّنه عندهم ﴿ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ أي لو عرفوا فظاعة العذاب الذي يستعجلونه، حين لا يستطيعون دفع العذاب عن وجوههم ولا عن ظهورهم لما استعجلوا الوعيد[1]، وذلك حين تحيط بهم النار من كل جانب ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي وليس لهم ناصر ينقذهم من عذاب الله.

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم ﴾ أي بل تأتيهم القيامة والساعة ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أي فتغلبهم وتدهشهم أو تحيّرهم ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ عنهم بالكلية ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي يمهلون ليستريحوا طرفة عين.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

---

(١) جواب «لو» محذوف لأنه أبلغ في التهديد والوعيد، أي لو يعلم هؤلاء الكفار ما سيلقونه من أنواع الكرب والعذاب، لما استعجلوا نزوله، ولكنهم سفهاء جهلة.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ تسلية للرسول ﷺ عن استهزائهم في ضمن الاستعجال، وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق مضمونها، أي وبالله لقد استهزىء برسل كرام، ذوي عدد كثير من قبلك ﴿ فَحَاقَ ﴾ أي أحاط ونزل وحلَّ، فإن معناه يدور على الشمول واللزوم، ولا يكاد يستعمل إلا في الشر ﴿ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم ﴾ أي من أولئك الرسل عليهم السلام ﴿ مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي فنزل بهم جزاء استهزائهم، وجنوا ثمرة استهزائهم، هلاكاً وعقاباً في الدنيا والآخرة، فكذلك حال هؤلاء المستهزئين.

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ خطاب للرسول ﷺ، إثر تسليته بما ذُكر، وأمرٌ له بأن يقول لأولئك المستهزئين أي من يحفظكم بالليل والنهار ﴿ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي من بأسه إن أراده بكم، وهذا كقول الرجل لمن حصل في قبضته: إلى أين مفرك؟ هل لك محيص؟ يُقال: كَلأَه اللهُ كلاَءَة: حفظه ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ أي لا يُخطرونه ببالهم، فضلاً أن يخافوا بأسه.

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ ﴾ الهمزة للإنكار والمعنى: ألهم آلهة تمنعهم من العذاب، هم معوّلون عليها، واثقون بحفظها؟ وفي توجيه الإنكار والنفي إلى الآلهة، لا إلى نفس الصفة، بأن يقال: أم تمنعهم آلهتهم؟ من الدلالة على سقوطها، عن مرتبة الوجود، فضلاً عن رتبة المنع ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أي هم لا يستطيعون

أن ينصروا أنفسهم ولا يصحبون بالنصر من جهتنا، فكيف يتصور أن ينصروا غيرهم؟ وحمايةُ النفس أولى من حماية الغير.

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ ﴾ إضراب عما توهّموا، ببيان أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا، وأمهلهم حتى طالت أعمارهم، فحسبوا أن لا يزالوا كذلك، وما حملهم على الإعراض، إلا الاغترار بطول المهلة، فنسوا عهدنا وجهلوا نعمتنا واغتروا، ولذلك عقبه بما يدل على أنه طمع فارغ، حيث قال ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ أي ألا ينظرون ولا يرون ﴿ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ ﴾ أي أرض الكفرة ﴿ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ ﴾ بموت أهلها وغلبة المسلمين عليهم، فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا؟ وهو تمثيل لما يُجْريه اللهُ عزَّ وجل من ديارهم، على أيدي المسلمين، ويضيفها إلى ديار الإسلام، فما هو حول مكة ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾؟ عليه ﷺ والمؤمنين؟ كأنه قيل أبعد ظهور ما ذُكر، ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم؟ إن كل ذلك من العِبَر، التي لو استعملوا عقولهم، لأعرضوا عن جهلهم، وتزينوا بزينة الإسلام والمسلمين.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم ﴾ أي إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة ﴿ بِٱلْوَحْىِ ۚ ﴾ الصادق، الناطق بإتيانها، أي إنما شأني أن أنذركم، بالإخبار بذلك، لا بالإتيان بها، فإنها مزاحم للحكمة التكوينية والشرعية ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ أُمر ﷺ بأن يقول لهم ذلك، توبيخاً وتسجيلاً عليهم بكمال الجهل والعناد، أي ولكنكم أيها المشركون ـ لشدة

جهلكم وعنادكم ـ كالصُمِّ الذين يسمعون الكلام والإنذار[1]، فلا يتعظون ولا ينزجرون.

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ أي ولئن أصابهم شيء يسير خفيف، مما أُنذروا به من عذاب الله، ولو كان أدنى شيء من العذاب، كالهبَّة، والنَّسْمة، واللَّفحة ﴿ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ أي ليقولنَّ معترفين بجريمتهم: يا هلاكنا ودمارنا لقد كنا ظالمين لأنفسنا بتكذيبنا رسل الله، وفي الآية إشارة إلى أن أهل الغفلة والشقاوة، لا ينتبهون حتى يمسهم أثر من آثار عذاب الله، فينادون عند ذلك بالويل والثبور.

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾ أي نقيم الموازين العادلة، التي توزن بها صحائف الأعمال ﴿ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ التي كانوا يستعجلونها ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ ﴾ من النفوس ﴿ شَيْـًٔا ﴾ حقاً من حقوقها بل يوفى كل ذي حق حقه، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي مقدار حبة، فإن حبة الخردل مثَلٌ في الصغر ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ أي أحضرنا ذلك المثقال للوزن ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا، والغرضُ منه

---

(١) شبههم تعالى بالصم ـ أي الطرش ـ وهم صحاح الحواس، لأنهم إذا سمعوا ما ينذرون به من آيات الله الجليلة، لا تعيه آذانهم، فكانت حالهم كحال الذين عدموا السماع، فلا يستمعون ولا يعون.

التحذيرُ، فإن المحاسب إذا كان في العلم، بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيءٌ، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء، فحقيق بالعاقل أن يكون بأشد الخوف منه.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ المراد بالفرقان هو التوراة وكذا بالضياء والذكر، أي وباللهِ لقد آتيناهما كتاباً، جامعاً بين كونه فارقاً بين الحق والباطل، وضياءً يستضاء به في ظلمات الجهل، وذكراً يتعظ به الناس، وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره.

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ أي عذابه، صفة مادحة للمتقين ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي يخشون عذابه تعالى، وهو غائب عنهم، وقيل: يخافونه في الخلوات، وهذا هو الأقرب ﴿ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ أي خائفون منها وتخصيص إشفاقهم من الساعة للإيذان بهولها وشدتها.

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ وَهَٰذَا ﴾ القرآن الكريم ﴿ ذِكْرٌ ﴾ يتذكر به من يتذكر ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ كثير الخيرات، غزير النفع ﴿ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ على الرسول ﷺ ﴿ أَفَأَنتُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ إنكارٌ لإنكارهم، كأنه قيل: أبعد ما علمتم أن شأنه كشأن التوراة، منزل من عند الله، أنتم منكرون؟ فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه، كيف يمكنكم إنكاره؟

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ .

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ ﴾ الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكرام، المستند إلى الهداية الخاصة، الحاصلة بالوحي، والاقتدار على إصلاح الأمة ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل إيتاء موسى وهارون التوراة ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ أي بأنه أهل لما آتيناه من الوحي والفضل.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ ﴾ أي اذكر وقت قوله لهم ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾؟ لتقف على كمال رشده، والتمثال: الصورةُ المصوّرة، وهذا تجاهل منه عليه السلام، كأنه لا يعرف أنها حجر أو شجر، اتخذوها معبوداً؟ وعبر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف قصداً إلى تحقيرها، وتوبيخاً لهم على إجلالها ومعنى ﴿ عَاكِفُونَ ﴾ أي مقيمون على عبادتها.

﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ أجابوا بذلك، لمّا لم يكن لهم حجة، فالتجأوا إلى التقليد لآبائهم الضالين، ولهذا أبطله بطريق القسم المؤكد حيث قال:

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ ﴾ الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة ﴿ فِى ضَلَٰلٍ ﴾ عجيب ﴿ مُّبِينٍ ﴾ ظاهر بيِّن، بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك، فالباطل لا يصير حقاً بكثرة المتمسكين به.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ لما سمعوا مقالته، استبعاداً لكون ما هم عليه ضلالاً، وتعجباً من تضليله إياهم ﴿ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالجِدِّ والصِّدق ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾؟ أو تقوله على وجه المزاح؟ ظنوا أن ما قاله لهم على وجه المداعبة.

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام مبيناً عقيدة التوحيد ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ وصفه تعالى بإيجادهن تحقيقاً للحق، وتنبيهاً على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من الربوبية، أي أنشأهن بما فيهن، من المخلوقات التي من جملتها أنتم وآباؤكم، وما تعبدونه ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم ﴾ الذي ذكرته، من كون ربكم رب السماوات والأرض فقط، دون ما عداه كائناً ما كان ﴿ مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أي العالمين به على سبيل الحقيقة.

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ أي لأجتهدن في كسرها، وإنما قاله سراً، وقيل سمعه رجل ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ من عبادتها إلى عيدكم.

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ أي قطعاً وحُطاماً، من الجذِّ الذي هو القطع، روي أن قومه خرجوا به في يوم عيد لهم، فبدؤوا ببيت الأصنام، وكانت سبعين صنماً مصطفاً، وثمة صنم عظيم من ذهب، وفي عينيه جوهرتان، تضيئان

بالليل، فدخلوه فسجدوا لها، ووضعوا بينها طعاماً، وقالوا إلى أن نرجع تكون الإلهة قد باركت على طعامنا، فذهبوا وبقي إبراهيم عليه السلام، فكسر الكلَّ بفأس، ولم يبق إلا الكبير، وعلّق الفأس في عنقه، وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي للأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الصنم الكبير ﴿يَرْجِعُونَ﴾ أي يرجعون إليه فيسألونه عن الكاسر، لأن من شأن المعبود، أن يُرجع إليه في الملمَّات.

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ حين رجعوا من عيدهم ورأوا ما رأوا ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا﴾ على طريقة الإنكار والتشنيع ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾؟ لجرأته على إهانتها وتحطيمها.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي بعض منهم مجيبين للسائلين ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي يعيبهم، فلعله فعل ذلك بها ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي يطلق عليه هذا الاسم، وكانوا قد سمعوا ما يقول في آلهتهم، ولو لم يكن إلا قوله عليه السلام ﴿ما هذه التماثيل﴾ لكفى ذلك إهانة لها!!.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي السائلون ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي بمرأى منهم، بحيث لا يخفى على أحد ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي يحضرون عقوبتنا له.

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ أي أتوا به، ثم قالوا: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾؟ مخاطبتهم إياه، للتنبيه على أن إتيانهم به عليه السلام أمر محقق، فهو المتَهمُ الأوحد، الذي لا يجرؤ أحد غيره على تكسير الأصنام.

﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ عليه السلام ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ أي حطَّمها وهشّمها هذا الصنم الكبير، مشيراً إلى الذي لم يكسره، سلك عليه السلام معهم مسلكاً تعريضياً، يؤديه إلى مقصده، الذي هو إلزامهم الحجة، على ألطف وجه، بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم، العاجزة عن دفع الضر عن أنفسها، مع ما فيه من التوقي من الكذب، والغرضُ تبكيتهم وإقامة الحجة عليهم، ولهذا قال ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ أي إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا، وإنما لم يقل: إن كانوا يسمعون، أو يعقلون، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً، لما أن نتيجة السؤال هو الجواب، وأن عدم نطقهم أظهر، وتبكيتهم بذلك أدخل، وقد حصل ذلك حسبما نطق به قوله تعالى:

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي راجعوا عقولهم، وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه، ولا على الإضرار بمن كسره، فكيف يستحق أن يكون معبوداً؟ ﴿ فَقَالُوٓاْ ﴾ أي بعضهم لبعض فيما بينهم ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أي بعبادة الأصنام، فإن من لا يدفع عن رأسه الفأس، كيف يدفع عن عابديه البأس؟

﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي انقلبوا إلى المجادلة بالباطل، بعدما استقاموا بالمراجعة، وقد أجرى الله الحق على لسانهم في القول الأول، ثم أدركتهم الشقاوة فأخذوا في المكابرة، أي انقلبوا في الحجة، واحتجوا على إبراهيم، بما هو الحجة له عليهم[1]، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ أي واللهِ لقد علمتَ أن ليس من شأنهم النطق، فكيف نسألهم؟

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام مبكِّتاً لهم ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي متجاوزين عبادته تعالى ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾ من النفع ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إن تركتم عبادته، وتتركون عبادة الواحد الأحد!؟.

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ أي تبّاً لكم ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ تضجَّر من إصرارهم على الباطل، وأنكر عبادتهم لها، بعد اعترافهم بأنها جمادات ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أي أليس لكم عقل تعقلون قبح صنيعكم؟ فلما لزمتهم الحجة، وعجزوا عن الجواب.

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

---

(١) شبَّه تعالى رجوعهم عن الحق إلى الباطل، بانقلاب شخصٍ في صورته وشكله، بحيث تصبح رجلاه إلى الأعلى ورأسُه إلى الأسفل، فكيف يمشي على رجليه، وكيف يفكّر بعقله؟ وإنه لتمثيل رائع بادي الحسن والجمال.

﴿ قَالُوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ حَرِّقُوهُ ﴾ فإنه أشد العقوبات ﴿ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ بالانتقام لها ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أي للنصر، ولما عجزوا عن المحاجة قالوا ذلك، وهكذا ديدن المبطل المحجوج، روي أنهم لما أجمعوا على إحراقه، حبسوه في بيت، وبنوا له حظيرةً بكوثى، قرية من قرى الأنباط، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الجَحِيمِ﴾[1] ثم جمعوا له الحطب، فأوقدوا ناراً عظيمة، حتى إن كانت الطير لتمر بها، وهي في أقصى الجو، فتحترق من شدة وهجها، ولم يكد أحد يحوم حولها، فلما أرادوا أن يلقوه، لم يعلموا كيف يلقونه، صنع لهم رجل المنجنيق، ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام، فقيَّدوه ووضعوه في المنجنيق، مقيداً ومغلولاً، فرموا به فيها، فجعل الله عزَّ وجلَّ النار روضة عليه، وبستاناً يتنعم فيه فذلك قوله تعالى:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي أبردي برداً غير ضار، ولم تحرق النارُ إلاّ وثاقه[2]، وقيل: كانت النار على حالها، لكنه تعالى دفع عنه أذاها، كما يشعر به ظاهر قوله تعالى على إبراهيم.

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

---

(١) سورة الصافات، آية: ٩٧.

(٢) فإن قيل: كيف خاطب الله النار مع أنها لا تعقل؟ الجواب: أن خطاب التكوين لا يختص بمن يعقل، مثل قوله تعالى: ﴿يا جبالُ أوِّبي معهُ والطَّيْرَ﴾ وقوله: ﴿يا أرضُ ابلعي ماءَكِ ويا سماءُ أقْلِعي﴾ فهذا خطاب التكوين لا يختص بالعقلاء ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ أما خطاب التكليف فهذا الذي يشترط فيه العقل ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ وهذا خلاصة القول بين الخطاب التكويني والخطاب التكليفي.

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ أي مكراً عظيماً في الإضرار به ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي أخسر من كل خاسر، حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق، برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحق، وهم على الباطل.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من العراق إلى الشام، روي أنه آمن لإبراهيم عليه السلام رجالٌ من قومه، حين رأوا ما صنع الله به، وآمنتْ به سارة، وتبعه «لوط» وكان ابن أخيه، فخرج مهاجراً إلى ربه، ومعه لوط، وسارة، فنزل حران، ثم خرج منها فقدم مصر، ثم خرج فنزل أرض فلسطين.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ﴾ أي عطيةً وهبةً زيادة على ما سأل، وهو يعقوب عليه السلام ﴿وَكُلًّا﴾ أي كل واحد من هؤلاء الأربعة ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ بأن وفقناهم للصلاح في الدين والدنيا، فصاروا كاملين، عابدين، صالحين.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ لدعائه عليه السلام بقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ ﴿يَهْدُونَ﴾ أي الأمة إلى الحق ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلك ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ليحثوهم عليه، فيتم كمالهم، بانضمام العمل إلى العلم ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ﴾ وهو من عطف الخاص على العام، دلالة على

فضله أي أمرناهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ﴾ موحِّدين، مخلصين في العبادة.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا﴾ حكمةً ونبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء عليهم السلام من الوحي ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ يعني اللواطة، وصفت بصفة أهلها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾ تعليل له، أي أشراراً، خارجين عن الطاعة.

﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي أدخلناه في أهل رحمتنا ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ أي دعا الله على قومه بالهلاك ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هؤلاء المذكورين ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي دعاءه الذي من جملته قوله: ﴿إِنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو الطوفان، وأصل الكرب: الغمُّ الشديد.

﴿وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ أي نصرناه ومنعناه من شر قومه المكذبين الضالين، فنجيناه وأهلكناهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ تعليل لما قبله ﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لاجتماع الأمرين، تكذيب الحق، والانهماك في الشر، فإنهما لم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى.

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ أي اذكر خبرهما وقت حكمهما ﴿ فِى ٱلْحَرْثِ ﴾ في حق الحرث ﴿ إِذْ نَفَشَتْ ﴾ تفرقت وانتشرت، النفشُ: أن تنتشر الغنمُ بالليل، ترعى بلا راع ﴿ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾ ليلاً بلا راعٍ، فرعته وأفسدته ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ ﴾ أي لحكم الحاكمين ﴿ شَٰهِدِينَ ﴾ أي حاضرين إذ كان بعلمنا، ولا يخفى علينا.

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ الضمير للحكومة أو الفتيا، رُوي أنه دخل على داود عليه السلام رجلان، فقال أحدهما: إن غنم هذا دخلت في حرثي ليلاً، فأفسدته فلم تبقِ منه شيئاً، فقضى له بالغنم، فخرجا فمرَّا على سليمان، وهو ابن عشر سنين، فأخبراه بذلك، فقال: غير هذا أرفق بالفريقين، فسمعه داود فدعاه، وقال له: كيف تقضي؟ فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض، لينتفع بدرِّها ونسلها، وتدفع الحرث إلى أرباب الغنم، ليقوم عليه حتى يعود إلى ما كان، ثم يترادَّا، فقال: القضاء ما قضيت الحكم بذلك، وكان هذا في شريعتهم، وقال مجاهد: كان هذا صلحاً، وما فعله داود حكماً، والصلح خير.. وفي قوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا

سُلَيْمَٰنَ﴾ دليل على رجحان قوله، ورجوع داود إليه، مع أن الحكم المبنيَّ على الاجتهاد، لا ينقض باجتهاد آخر، وإن كان أقوى منه وقال قوم: إن داود وسليمان عليهما السلام حكما بالوحي، فكان حكم سليمان ناسخاً لحكم داود، ومن غرائب أحكام داود وسليمان عليهما السلام، ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه. أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كانت امرأتان معهما ابناهما، فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقُّه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك اللهُ، هو ابنها، فقضى به للصغرى»[1] ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي كل واحدٍ منهما آتينا حكماً وعلماً كثيراً، وهذا يدل على أن خطأ المجتهد، لا يقدح في كونه مجتهداً، روى الشيخان عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر»[2] ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ﴾ شروع في بيان ما يخص بكل منهما من إكراماته تعالى، إثر بيان إكراماته العامة لهما ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ أي يقدِّسن الله معه، بصوت يتمثل له ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ أي والطير مسخرات له ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي من شأننا أن نفعل أمثاله، فليس ذلك ببدع منا، وإن كان بديعاً عندكم.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي وعلمنا داود صنع الدروع بإلانة

(١) الحديث أخرجه البخاري ١٢/ ٥٥ ومسلم رقم ١٧٢٠ في الأقضية.
(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام ١٣/ ٣١٨ ومسلم رقم ١٧١٦ في الأقضية.

الحديد له، وهو أول من صنعها، واتَّخذها حِلَقاً، وكانت من قبل صفائح ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾ أي لتقيكم ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي في الحرب حين قتال الأعداء ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾؟ أمرٌ واردٌ على صورة الاستفهام للمبالغة، أي اشكروا الله على ذلك.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي سخرنا له الريح تنقله من بلد إلى بلد، وتقطع به المسافات البعيدة، في فترة قصيرة ﴿عَاصِفَةً﴾ أي شديدة الهبوب ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي إن أرادها عاصفة كانت عاصفة، وإن أرادها لينة كانت لينة ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ﴾ وهي الشام، وذلك لأنها تجري بسليمان وأصحابه، حيث يشاء ثم يعود إلى منزله بالشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ فنجريه حسبما تقتضيه الحكمة.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي وسخرنا له من الشياطين ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار بأمره لاستخراج الدر، وما يكون فيها من نفائسها ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ أي غير ما ذُكر كبناء المدن، والقصور، واختراع الصنائع النفيسة لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَه مَا يَشَاءُ مِنْ مَحاريبَ وتَمَاثِيلَ﴾ ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره، أو يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم.

واعلم أن أجسام هذا العالم، إما كثيفة، أو لطيفة، فأكثف الأجسام: الحجارةُ، والحديدُ، وقد جعلهما الله تعالى معجزة لداود عليه السلام، فأنطق الحجر، وليَّنَ له الحديد، وألطفُ الأشياء الهواءُ، والنارُ، وقد

جعلهما الله معجزةً لسليمان عليه السلام، فسخَّر له الريح، وسخَّر له الجنَّ، لأن الشياطين مخلوقون من النار.

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ أي واذكر خبر أيوب عليه السلام حين دعا ربه ﴿ أَنِّي ﴾ أي بأني ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ بالضم خاص، بما في النفس كمرض وهزال ونحوهما ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وصفه تعالى بغاية الرحمة بعدما ذكر نفسه بما يوجبها، واكتفى به عن عرض المطلب، لطفاً في السؤال، وإنما شكى إليه تلذذاً بالنجوى، لا تضرراً منه بالشكوى، والشكاية إليه غاية القرب، كما أن الشكاية منه غاية البعد، وكان عليه السلام من ولد عيص بن إسحق عليه السلام، وكانت أمه من أولاد لوط عليه السلام، استنبأه الله تعالى، وكثَّر أهله وماله، وكان رحيماً بالمساكين، وكافلاً لليتامى والأرامل، وكريماً للضيف، وشاكراً لأنعم الله تعالى، فابتلاه الله بهلاك أولاده وذهاب أمواله، والمرض في جسمه، روي أن امرأته «رحمة» قالت له يوماً لو دعوتَ الله تعالى!! فقال: كم كانت مدة الرخاء؟ فقالت: ثمانين سنة، فقال أستحي من الله أن أدعوه، وما بلغتْ مدةُ بلائي مدةَ رخائي.

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ ﴾ أي أجبنا دعاءه وتضرعه، وأزلنا ما أصابه من ضر وبلاء ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ بأن ولد له ضعف ما كان، وولد له منهم نوافل ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ أي رحمة على أيوب، وتذكرة لغيره من العابدين، الصابرين على ما أصيبوا.

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ ﴾ أي واذكر قصة هؤلاء الأنبياء الكرام، إسماعيل، وإدريس، وذا الكفل عليهم السلام ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد من هؤلاء الأنبياء ﴿ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ على مشاق التكاليف، وشدائد الحياة.

﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ ﴾ أي أدخلناهم في الجنة دار الرحمة ﴿ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أي الكاملين في الصلاح والتقوى.

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾ أي واذكر صاحب الحوت، وهو «يونس» عليه السلام ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾ أي مراغماً لقومه غضبان عليهم، لعدم استجابتهم لدعوته، إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون، ولا يصح أن يقال: مغاضباً لربه، إذ لا يناسب منصب النبوة، روي أنه خرج من بين أظهرهم بعد أن تمادى إصرارهم، مهاجراً عنهم قبل أن يؤمر، وظن أن ذلك يسوغ ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي ظنَّ أن لن نضيِّق عليه، وهو كقوله تعالى: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيِّق، وليس هذا عقوبة وإنما هو ابتلاء، كما جاء في الحديث الشريف «أشدكم بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»[1] ﴿ فَنَادَىٰ ﴾ أي فكان ما كان من المساهمة، والتقام الحوت له،

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري في المرضى، وابن ماجه في الفتن، وأحمد في المسند ١/ ١٧٣.

فنادى ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي في الظلمات الشديدة المتكاثفة: ظلمةِ بطن الحوت، والبحر، والليل ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ أي بأنه لا إله إلا أنت يا رب فتداركني برحمتك ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي أنزّهك تنزيهاً من أن يعجزك شيء ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بتعريضها للهلكة، حيث بادرت إلى المهاجرة قبل الاستئذان.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه على ألطف وجه وأحسنه، روى أبو هريرة مرفوعاً قال: أوحى الله تعالى إلى الحوت أن خُذْه، ولا تخدشْ له لحماً، ولا تكسرْ له عظماً، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ﴾ بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات دام في بطنه، وأراد بالغمِّ غمّ الالتقام له ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اي مثل ذلك الإنجاء البديع ننجي المؤمنين من الكروب والشدائد، إذا دعونا، واستغاثوا بنا بالإخلاص.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَزَكَرِيَّآ﴾ أي واذكر خبره ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ بلا ولد يرثني ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي فحسبي أنت إن لم ترزقني وارثاً.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ أي رزقناه غلاماً اسمه يحيى، وقد مر كيفية استجابة دعائه في سورة مريم ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي أصلحناها للولادة بعد أن كانت عاقراً لا تلد ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الأنبياء عليهم السلام المذكورون جميعاً ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تعليل لما فُصِّل من فنون إحسانه تعالى، المتعلقة بالأنبياء المذكورين، أي كانوا يبادرون في وجوه الخيرات، مع استقرارهم في أصل الخير، وهو السرُّ في إيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي ذوي رَغَب ورَهَب، راغبين للثواب، وخائفين من العقاب ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي مخبتين متضرعين، فالمعنى: إنهم نالوا ما نالوا، لاتصافهم بهذه الخصال الحميدة.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي اذكر خبر التي أعفَّت نفسها عن الفاحشة، وعن الحلال والحرام، كما قالت: ﴿لَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ والتعبير بالموصول لتفخيم شأنها، وتنزيهها عما زعمه اليهود في حقها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أي أحيينا عيسى في جوفها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ من الروح الذي هو من أمرنا، وقيل: فعلنا النفخ من جهة روحنا جبريل عليه السلام، والإضافة للتشريف ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ﴾ أي قصتهما، وحالهما ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن من تأمل حالهما، تحقق كمال قدرته عزَّ وجلَّ.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي ملة التوحيد والإسلام، أشير إليها بهذه تنبيهاً على

كمال ظهور أمرها في السداد ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي ملتكم وشريعتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها، وتراعوا حقوقها، والخطابُ للناس قاطبة ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم السلام[1] إذ لا احتمال لتبديلها، كفروع الشرائع ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ لا إله لكم غيري ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ خاصة لا تعبدوا غيري.

﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ﴾ التفات إلى الغيبة، لينعى على الذين تفرقوا في الدين تقبيح فعلهم، كأنه قيل: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكبوا في دين الله، الذي أجمعت عليه كافة الأنبياء عليهم السلام؟! ثم توعدهم بقوله ﴿كُلٌّ﴾ أي كل واحد من الفرق المتحزبة ﴿إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ بالبعث، فنجازيهم بأعمالهم، وقولهُ ﴿فمن يعمل﴾ تفصيلٌ للجزاء.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ۖ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسوله ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي لا حرمان لثواب عمله، عبَّر عن ذلك بالكفران الذي هو شر النعمة، لبيان كمال نزاهته تعالى، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ أي لسعيه ﴿كَٰتِبُونَ﴾ أي مثبتون ذلك في صحائف أعمالهم.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

---

(١) لا اختلاف في أصول الشرائع التي لا تتبدل بتبدل الأعصار، فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم دينهم واحد، وشرائعهم مختلفة، كما قال سبحانه: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾.

﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ أي ممتنع على أهلها ﴿ أَهْلَكْنَٰهَآ ﴾ قدرنا هلاكها لغاية طغيانهم ﴿ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي ممتنع البتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء، وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر، لأنهم المنكرون للبعث والرجوع[1].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ ﴾ «حتى» للغاية كأنه قيل: يستمرون على ما هم عليه، حتى إذا قامت القيامة، يرجعون إلينا، ويقولون يا ويلنا الخ ﴿ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ قبيلتان من الإنس والمراد بفتحها فتح سدها ﴿ وَهُم ﴾ أي يأجوج ومأجوج ﴿ مِّن كُلِّ حَدَبٍ ﴾ أي نَشز من الأرض، أي ارتفاع من الآكام، والتلال ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ أي يسرعون، وأصله مقاربة الخطوات مع الإسراع، والحَدَبُ بفتحتين: ما ارتفع من الأرض.

﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ ﴾ والمراد به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب لا النفخة الأولى ﴿ فَإِذَا هِىَ ﴾ جواب الشرط وإذا للمفاجأة ﴿ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي مرتفع الأجفان لا تكاد تطرف من هول

---

(١) هذا وجه في تفسير الآية الكريمة، وروى الحافظ ابن كثير عن ابن عباس أن معنى الآية: ممتنع على أهل قرية أهلكناهم، أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا مرة ثانية. ١ هـ يريد أنه من المستحيل عودتهم إلى الدنيا بعد الهلاك، حتى تقوم الساعة فيرجعون للحساب والجزاء.

ما هم فيه ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ متعلق بمحذوف تقديره: يقولون يا ويلنا ﴿قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ﴾ تامة ﴿مِّنۡ هَٰذَا﴾ الذي دهمنا من البعث، ولم نعلم أنه حق ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي لم نكن غافلين عنه، حيث نُبِّهنا عليه بالآياتِ والنُّذر، بل كنا ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨﴾.

﴿إِنَّكُمۡ﴾ خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل أمرهم ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أصنامكم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ هو ما يرمى به ويهيج النار، الحَصَبُ بفتحتين: ما هُيِّئَ للوقود من الحطب ﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي فيها داخلون، والخطاب لهم ولما يعبدون تغليباً، روي أن رسول الله ﷺ تلا الآية، فقال له ابن الزبعرى: أليست اليهود عبدوا عزيراً، والنصارى المسيح، وبنو مليح الملائكة، فردَّ عليه ﷺ فقال: أما علمتَ أن «ما» لما لا يعقل، على أنهم لا يعبدون هؤلاء بل يعبدون الشيطان..

﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩﴾.

﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي أصنامهم ﴿ءَالِهَةٗ﴾ كما يزعمون ﴿مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾ وحيث تبيَّن ورودهم إياها، تعيَّن امتناع كونها آلهة بالضرورة ﴿وَكُلّٞ﴾ من العبدة والمعبودين ﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا خلاص لهم عنها.

﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾.

﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ﴾ أي أنين وتنفسٌ شديد ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾ أي لا يسمع بعضهم زفير بعض، لشدة الهول والعذاب وفي السماع نوع أنس فلم يعطوه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين، حسبما جرت سُنَّة التنزيل، من إيراد الترغيب إثر الترهيب ﴿ ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ أي الخصلة الحسنى وهي السعادة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى الموصول ﴿ عَنْهَا ﴾ عن الجحيم ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ لأنهم في الجنة، وشتان بينها وبين النار.

﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ ﴾ أي لا يسمعون صوتها سمعاً ضعيفاً، كما هو المعهود عند كون الشخص بعيداً، وإن كان صوته في غاية الشدة ﴿ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ بيان لفوزهم بالمطالب، إثر بيان خلاصهم من المهالك، أي دائمون في غاية التنعّم.

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ بيان لنجاتهم من الأفزاع بالكلية ﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي تستقبلهم مهنئين لهم ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ﴾ أي قائلين هذا اليوم يومكم ﴿ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ في الدنيا، وتُبشَّرون بما فيه من المثوبات.

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ ﴾ الطيُّ: ضدُّ النشر، أي نطوي السماء طياً

﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ وهي الصحيفة أي طياً كطيّ الصحف ﴿لِلْكُتُبِ﴾ أي للكتب التي كتب فيها، فسجلُّها بعض أجزائها، وبه يتعلق الطيُّ، فالسماوات تُطوى كما تُطوى الصحف والسجلات ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي نعيد ما خلقناه، إعادةً مثل بدئنا إياه، في كونها إيجاداً بعد العدم، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على البداء، وأختلفوا في كيفية الإعادة؟ فمنهم من قال: إن الله يفرّق الأجزاء، ولا يعدمُها، ثم إنه يعيد تركيبها، ومنهم من يقول: إنه تعالى يعدمها بالكلية، ثم إنه يوجدها بعينها مرة أخرى، وهذه الآية دالة على هذا الوجه، لأنه سبحانه شبَّه الإعادة بالابتداء، والابتداء ليس عبارة عن تركيب الأجزاء، بل عن الوجود بعد العدم ﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكد لفعله ﴿عَلَيْنَآ﴾ إنجازه ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ لما ذُكر لا محالة، فاستعدُّوا له بصالح الأعمال، للخلاص من هذه الأهوال، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إنكم محشورون إلى الله، حفاة، عراةً، غُرْلاً[1]».

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ هو كتاب داود عليه السلام ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي من بعد اللوح المحفوظ، أي وبالله لقد كتبنا في كتاب داود بعدما كتبنا وسطّرنا في اللوح المحفوظ ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة، كما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿الحَمْدُ للهِ الذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان وتتمته ﴿كَمَا بدأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُه وَعْدَاً عَلَينَا إِنَّا كنَّا فَاعِلِينَ﴾ ألاَ وإنَّ أولَ الخلائق يُكسىٰ يوم القيامة: إبراهيمُ عليه السلام، ألاَ وإنه سيجاء برجالٍ من أمتي، فيُؤمر بهم ذات الشمال ـ أي إلى النار ـ فأقول أي ربِّ أمتي!! فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم بعد أن فارقتهم!! فأقول: سُحْقاً، سُحْقاً».

نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّة حَيْثُ نشاءُ﴾[1] وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقيل الأرض المقدسة، وهو قول الكلبي، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الآية ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي المؤمنون، وهذا وعدٌ منه تعالى بإظهار دين الإسلام.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي فيما ذُكر في السورة الكريمة، من الأخبار والمواعظ، والوعد والوعيد، والبراهين على التوحيد ﴿لَبَلَٰغًا﴾ أي لكفاية وموعظة ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ أي موحّدين مؤمنين، همُّهم الطاعةُ والعبادة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد بما ذُكر، وبأمثاله من الشرائع والأحكام، التي هي مناطٌ لسعادة الدارين ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ قاطبة، فإنَّ ما بعثتَ به سببٌ لسعادة الدارين، ومنشأ، لانتظام مصالحهم في النشأتين، ومن لم يغتنم مغانم آثاره، فإنما فرَّط في نفسه[2].

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ أي ما يوحى إليَّ إلاَّ

---

(١) سورة الزمر، آية: ٧٤.

(٢) إن قيل: كيف قال: ﴿وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين﴾ مع أن النبي ﷺ لم يكن رحمة للكافرين، لأنه أرسل بالسيف عليهم؟ فالجواب أن بعثه رحمة للكفار أيضاً، من حيث أن عقوبتهم أُخِّرت بسببه، وأمنوا به من عذاب الاستئصال، الذي كان يأخذ الله به المكذبين، من الأمم السابقة، ثم إن تعاليمه ﷺ رحمة لجميع الخلق لو عقلوها!!.

أن معبودكم هو إله واحد، لا شريك له في ملكه، وإنما جاء بصيغة الحصر «إنما» لأن التوحيد هو المقصود الأصلي من البعثة، وأما ما عداه فمن الأحكام المتفرعة عليه[1] ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ أي مخلصون العبادة لله تعالى؟.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ أي أعلمتكم إعلاماً واضحاً ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي على عدل واستقامة، بالبرهان النيِّر، فلا حجة لكم بعد اليوم، فالمعنى: أعلمتكم ما أُمرتُ به، كائنين على سواء في الإعلام، لم أطوه عن أحد منكم، وما فرَّقتُ بينكم في النصح وتبليغ الرسالة ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ أي ما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؟ من غلبة المسلمين، وظهور الدين؟ ولا متى يكون ذلك العذاب لكم؟.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي يعلم ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام، وتكذيب الآيات والرسول ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من الإحَن والأحقاد للمسلمين، فيجازيكم عليه.

---

(١) شريعة الرسول ﷺ عادلة كاملة، جاءت لخير البشرية جميعها، وحوت كل الفضائل الخُلقية، والاجتماعية، فقد روي عن أبي داود يقول: كتبت عن النبي ﷺ خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها أربعة آلاف حديث، وثمانمائة حديث، ويكفي للإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث، حديث «الأعمال بالنيات».. وحديث «الحلالِ بيِّن، والحرام بيّن..» وحديث «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» وحديث «لا يكون المؤمن مؤمناً، حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه» ١ هـ.

﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿ وَإِنْ أَدْرِي ﴾ وما أدري ﴿ لَعَلَّهُ ﴾ لعل تأخير جزائكم ﴿ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ﴾ استدراج لكم، لينظر كيف تعملون ﴿ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أي تمتع إلى أجل مقدَّر، تقتضيه مشيئته، المبنية على الحِكَم البالغة.

﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ ﴾ أي احكم بيننا وبين أهل مكة بالعدل ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أي كثير الرحمة على عباده ﴿ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾ أي المطلوب منه المعونة ﴿ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ من الحال فإنهم كانوا يقولون إن الشوكة تكون لهم وإن المتوعد به لو كان حقاً لنزل بهم، إلى غير ذلك مما لا خير فيه، فاستجاب الله دعوة رسوله ﷺ فخيَّب آمالهم، وغيَّر أحوالهم، وأصابهم يوم بدر ما أصابهم!! والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، وصلى الله تعالى على خير خلقه، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنبياء».

* * *